الرقابةُ الذاتيةُ ومُحدداتُها الخُلُقيَّةُ والسوسيولوجيَّةُ في الإعلامِ الإسلاميّ

-دراسةٌ قرآنيَّةٌ موضوعيَّةٌ-

◆ د. ممدوح عزّ الدين[1]

■ خلاصة

تسعى هذه الدراسةُ إلى تحليلِ مفهومِ الرَّقابةِ الذاتيّةِ في الإعلامِ الإسلاميِّ؛ باعتبارِها أحدَ أهمِّ المحدِّداتِ الخُلُقيَّةِ والسوسيولوجيّةِ التي تضبطُ الكلمةَ الإعلاميّةَ في سياقٍ عالميٍّ متحوِّلٍ.

ينطلقُ البحثُ من الأساسِ القرآنيِّ الذي جعلَ من الضميرِ الحارسِ الداخليِّ للكلمةِ، ومن استحضارِ الجزاءِ الأخرويِّ رادعًا يسبقُ كلَّ سلطةٍ خارجيّةٍ. كما يبرزُ دورُ النماذجِ القرآنيّةِ والنبويّةِ والعلويّةِ في تجسيدِ قيمِ الصدقِ والحكمةِ والمسؤوليّةِ.

ومن جهةٍ أخرى، تستأنسُ الدراسةُ بالمقارباتِ السوسيولوجيّةِ الحديثةِ، مثل الضميرِ الجمعيِّ عندَ (دوركايم - Durkheim)، ورأسِ المالِ الرمزيِّ عند (بورديو - Bourdieu)، لفهمِ الوظائفِ التربويّةِ والاجتماعيّةِ للإعلامِ.

وفي الأخيرِ، تقترحُ الدراسةُ نموذجًا مثاليًّا لميثاقٍ خُلُقيّ للإعلامِ الإسلاميِّ قائمٍ على الرَّقابةِ الذاتيّةِ، بوصفِها أفقًا لتوازنٍ حقيقيٍّ بين الحريّةِ والمسؤوليّةِ.

الكلمات المفتاحية: الرَّقابةُ الذاتيّةُ، الإعلامُ الإسلاميُّ، الضميرُ الجمعيُّ، الأخلاقُ الإعلاميّةُ، المسؤوليّةُ.

---

١ - أستاذ باحث في علم الاجتماع – تونس .

مقدّمة

يَشهَدُ العالَمُ اليومَ تحوُّلاتٍ إعلاميّةً واسعةً تتجاوزُ حدودَ التِّقنيّةِ إلى عُمقِ الاجتماعِ والثقافةِ والسّياسةِ. فالإعلامُ لم يَعُدْ مجرَّدَ وسيلةٍ لنقلِ الأخبارِ أو الترفيهِ؛ بل أضحى أداةً مركزيّةً في صناعةِ الرأيِ العامِّ، وتشكيلِ الهويّاتِ، وإعادةِ إنتاجِ القِيَمِ. وقد نبَّهَ علمُ الاجتماعِ الكلاسيكيُّ والمعاصرُ إلى خطورةِ هذا الدَّورِ؛ إذ رأى (إميل دوركايم) أنّ الضميرَ الجمعيَّ يُمثِّلُ المرجعيّةَ العُليا التي تضبطُ سلوكَ الأفرادِ وتُوجِّهُهم ضمنَ الجماعةِ[1]، بينما أبرزَ (بيير بورديو) أنّ الحقلَ الإعلاميَّ يتَّسمُ بكونِه ساحةَ صراعٍ بينَ أشكالٍ مختلفةٍ من رأسِ المالِ الرمزيِّ والاقتصاديِّ والسّياسيِّ[2].

غيرَ أنّ الفكرَ الإسلاميَّ ـ وفي قلبِه القرآنُ الكريمُ ـ قد سبقَ إلى وضعِ أُسُسٍ عميقةٍ للرَّقابةِ الذاتيّةِ بما يجعلُها ضمانةً خُلُقيّةً ومجتمعيّةً للعملِ الإعلاميِّ. فالآياتُ القرآنيّةُ جاءت مؤكِّدةً على أنَّ الإنسانَ محاسَبٌ على كلِّ ما ينطقُ به: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا**﴾ [الإسراء: ٣٦]، كما نبَّهتْ إلى خطورةِ الكتمانِ أو التَّزييفِ في البلاغِ الإعلاميِّ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَومَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النساء: ٤١].

مِن هنا، تَنبثِقُ إشكاليّةُ هذا البحثِ: كيفَ يمكنُ للرَّقابةِ الذاتيّةِ ـ كما حدَّدَها القرآنُ الكريمُ ـ أن

1 - Émile Durkheim, Les Règles de la méthode sociologique, p. 40.

٢ - بيير بورديو: التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ص٨٣.

تُشكِّلَ أساسًا خُلُقيّا وسوسيولوجيًّا للعملِ الإعلاميِّ الإسلاميِّ، وأن تَضمَنَ التوازنَ بينَ الحُرِّيّةِ والمسؤوليّةِ في ظلِّ تحدِّياتِ الإعلامِ المعاصرِ؟

ويتفرَّعُ عن هذا السُّؤالِ المركزيِّ عددٌ من التَّساؤلاتِ الجزئيّةِ:

١. ما الخصائصُ التي تميِّزُ الرَّقابةَ الذاتيّةَ القرآنيّةَ عن الرَّقابةِ الخارجيّةِ؟

٢. كيفَ يُسهِمُ البُعدُ الإيمانيُّ (الإيمانُ، استحضارُ الجزاءِ، المُحاسبةُ الأُخرويّةُ) في تعزيزِ الرَّقابةِ الذاتيّةِ؟

٣. ما هي المُرتكزاتُ القرآنيّةُ الأساس (الضَّميرُ، المسؤوليّةُ، الصِّدقُ، الحِكمةُ) التي تُؤسِّسُ لخُلُقيّاتِ الممارسةِ الإعلاميّةِ؟

٤. كيفَ يمكنُ الاستفادةُ من المُقارباتِ السوسيولوجيّةِ (الضَّميرُ الجمعيُّ، رأسُ المالِ الرمزيُّ، الوظيفةُ التربويّةُ للإعلامِ) لفَهمِ آليّاتِ الرَّقابةِ الذاتيّةِ وتفعيلِها؟

٥. هل يمكنُ صياغةُ ميثاقٍ خُلُقيّ للإعلامِ الإسلاميِّ يستندُ إلى الرَّقابةِ الذاتيّةِ ويستجيبُ للتَّحدِّياتِ العمليّةِ؟

وبناءً على هذهِ الإشكاليّةِ، تنطلقُ فرضيّاتُ البحثِ من المُعطياتِ الآتية:

١. إنَّ الرَّقابةَ الذاتيّةَ في المنظورِ القرآنيِّ تستندُ إلى أُسُسٍ إيمانيّةٍ تجعلُها أكثرَ فاعليّةً واستدامةً من الرَّقابةِ الخارجيّةِ.

٢. إنَّ الجمعَ بين المرجعيّةِ القرآنيّةِ والتحليلِ السوسيولوجيِّ يُتيحُ إطارًا مُتكاملاً لفَهمِ وظيفةِ الرَّقابةِ الذاتيّةِ في الإعلامِ.

٣. إنَّ الرَّقابةَ الذاتيّةَ، إذا فُعِّلَت عمليًّا، يمُكنُ أن تُشكِّلَ ضمانةً لإعلامٍ إسلاميٍّ مُنحازٍ للحقيقةِ وقادرٍ على مقاومةِ الضُّغوطِ السياسيّةِ والاقتصاديّةِ.

وعليهِ، تَسعى هذهِ الدراسةُ إلى تقديمِ مُقاربةٍ موضوعيّةٍ تنطلقُ من القرآنِ الكريمِ، وتتقاطعُ مع مُنجزاتِ علمِ الاجتماعِ، لِبَلورَةِ فَهمٍ أعمقَ للرَّقابةِ الذاتيّةِ باعتبارِها أحدَ أهمِّ محدِّداتِ الإعلامِ الإسلاميِّ المعاصرِ.

أوَّلًا: الرَّقابةُ الذَّاتيَّةُ في القرآنِ الكريمِ: المفهومُ والخصائصُ التي تميِّزُها عن الرَّقابةِ الخارجيَّةِ

يُشكِّلُ مفهومُ الرَّقابةِ الذَّاتيَّةِ في التَّصوُّرِ القرآنيِّ حَجرَ الزاويةِ في بناءِ الإنسانِ المؤمنِ؛ باعتبارِها الآليّةَ الجوهريّةَ التي تَضمنُ انسجامَ السلوكِ الفرديِّ مع القِيَمِ الدينيّةِ والخُلُقيَّةِ. فالإنسانُ في الرؤيةِ القرآنيّةِ ليس مجرَّدَ كائنٍ يعيشُ في إطارِ قوانينَ وضعيّةٍ أو أعرافٍ اجتماعيّةٍ تُحدِّدُ ما يجوزُ وما لا يجوزُ، بل هو مخلوقٌ مُكلَّفٌ ومسؤولٌ أمامَ اللهِ ـ خالقِه ورازقِه ـ عن كلِّ ما يصدُرُ عنهُ من قولٍ أو فعلٍ، بل وحتّى عن خواطرِ قلبِه ونواياهُ. وهذا التَّكليفُ يقتضي أن يكونَ الوازعُ الدَّاخليُّ ـ أي الرَّقابةُ الذَّاتيَّةُ ـ هو الضَّامنَ الأوَّلَ للسلوكِ القويمِ.

١ - التَّعريفُ اللُّغويُّ والاصطلاحيُّ للرَّقابةِ الذَّاتيَّةِ

أ- في اللُّغةِ:

مادَّةُ "رَقَبَ" تَدُلُّ على الملاحظةِ والمتابعةِ والحفظِ. جاء في « لسانِ العربِ»: «الرَّقيبُ الحافظُ، والرَّقابةُ: الانتظارُ والتَّرَقُّبُ»، ومنها «الرَّقيبُ» الذي يُراقبُ حركاتِ النَّاسِ ويحصي عليهم.[1] وبذلك، فالرَّقابةُ في أصلِها اللُّغويِّ تعني المتابعةَ الدَّقيقةَ المستمرَّةَ التي لا يَغيبُ عنها شيءٌ.

١ - محمد بن مكرم (ابن منظور): لسان العرب، ج١، ص ٤٢٥.

ب- في الاصطلاحِ القرآنيِّ:

تَعني الرَّقابةُ الذَّاتيَّةُ في ضوءِ الاستعمالِ القرآنيِّ: شعورَ الإنسانِ الدَّائمَ باطِّلاعِ اللهِ على سرِّه وعلَنِه، وما يَقتضيهِ هذا الشُّعورُ من انضباطِ سلوكِه وفقَ أوامرِ اللهِ ونواهيهِ. فهي رَقابةٌ مرتبطةٌ بالضَّميرِ، لكنَّها ليست ضميراً ذاتيًّا صِرفًا؛ بل ضميراً متجذِّرًا في العقيدةِ. قال تعالى: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق: ١٨].

إذن، فالرَّقابةُ الذَّاتيَّةُ اصطلاحًا هي: القدرةُ الدَّاخليَّةُ التي يَكتسبُها المؤمنُ من يقينِه بعِلمِ اللهِ وإحاطتِه، فتجعلهُ مُحاسِبًا لنفسِه قبلَ أن يُحاسبَه غيرُه.

٢- خصائصُ الرَّقابةِ الذَّاتيَّةِ في القرآنِ الكريمِ

أ- رَقابةٌ داخليَّةٌ:

الميزةُ الأولى أنَّها رَقابةٌ تَنبعُ من الدَّاخلِ. فهي ليست مفروضةً بقوَّةِ القانونِ أو المجتمعِ، بل نابعةٌ من إيمانِ الفردِ. يُعبِّرُ القرآنُ عن هذا البُعدِ الدَّاخليِّ بقولِه: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق: ١٦].

هذا الشُّعورُ بالقربِ الإلهيِّ يجعلُ الإنسانَ يُضبِطُ نفسَه حتَّى في غيابِ أيِّ رقيبٍ خارجيٍّ؛ لأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على وساوسِه ونيَّاتِه.

ب- رَقابةٌ شاملةٌ:

تَشمَلُ الرَّقابةُ الذَّاتيَّةُ ظاهرَ الإنسانِ وباطنَه معًا. فهي تَمتدُّ إلى القولِ والفعلِ والنيَّةِ. قال تعالى: ﴿**وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وبهذا المفهومِ، لا يستطيعُ الإنسانُ أن يُخفِي عن رَقابةِ اللهِ شيئًا؛ لا في عملِه ولا في ضميرِه.

ج- رَقابةٌ دائمةٌ:

من أبرزِ الخصائصِ أنَّها رَقابةٌ مستمرَّةٌ غيرُ منقطعة. فهي لا تتوقَّفُ عند حدودِ الزَّمانِ أو المكانِ؛ لأنَّ علمَ اللهِ مُحيطٌ دائمٌ. قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى**﴾ [العلق: ١٤].

وبذلك، فهي أكثرُ استمراريَّةً من أيِّ نظامٍ بشريٍّ.

د- رَقابةٌ تربويَّةٌ إصلاحيَّةٌ:

الرَّقابةُ في القرآن تربويَّةٌ إصلاحيَّةٌ تفتحُ البابَ دائمًا للتَّوبةِ والعَودةِ. قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ**﴾ [الزمر: ٥٣]. فالهدفُ ليس العقابَ فقط، بل تهذيبُ النَّفسِ وإصلاحُها، ليبقى المؤمنُ دائمَ الاستعدادِ للمراجعةِ والتَّوبةِ.

٣-الفرق بين الرَّقابةِ الذَّاتيَّةِ والرَّقابةِ الخارجيَّةِ

أ- من حيث المصدر:

- الرَّقابةُ الذَّاتيَّةُ: مصدرُها يقينُ الإنسانِ بعِلمِ اللهِ وإحاطتِه.
- الرَّقابةُ الخارجيَّةُ: مصدرُها القانونُ أو المجتمعُ. قال تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾ [الفجر: ١٤].

ب- من حيث الفاعلية:

- الرَّقابةُ الذَّاتيَّةُ: ملازمةٌ للإنسانِ في حالاته وظروفِه كلِّها.
- الرَّقابةُ الخارجيَّةُ: محدودةٌ، تضعفُ بضعفِ المؤسساتِ.

ج- من حيث النطاق:

- الرَّقابةُ الذَّاتيَّةُ: تشملُ النوايا والسرائرَ والأفعالَ.
- الرَّقابةُ الخارجيَّةُ: تقتصر غالبًا على الأفعالِ الظاهرةِ. قال تعالى: ﴿**يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**﴾ [طه: ٧].

د- من حيث الجزاء:

- الرَّقابةُ الذَّاتيَّةُ: جزاؤُها دنيويٌّ (اطمئنانُ الضميرِ) وأخرويٌّ (حسابُ الله)
- الرَّقابةُ الخارجيَّةُ: جزاؤُها دنيويٌّ فقط (غرامةٌ، سجن...).

قال تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

٤- البُعدُ الروحيُّ في الرَّقابةِ الذَّاتيَّةِ

- ليست الرَّقابةُ الذَّاتيَّةُ مجردَ وظيفةٍ خُلُقيّةٍ، بل لها بُعدٌ روحيٌّ عميقٌ. فهي تجعلُ الإنسانَ يعيشُ دائمًا في حضرةِ الله، فيتولَّدُ لديه الخشيةُ والورعُ والإحسانُ. وقد عبرّ القرآنُ عن ذلك بقولهِ: ﴿**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء: ٤٩].

فالخشيةُ هنا ليست خوفًا سلبيًّا، بل وعيًا عميقًا بعظمةِ الله يوجّهُ السلوكَ نحو الاستقامةِ.

٥- الأثرُ الخُلُقيّ والاجتماعيُّ للرَّقابةِ الذَّاتيَّةِ

لا تقتصرُ الرَّقابةُ الذَّاتيَّةُ القرآنيةُ على الفردِ، بل تنعكسُ على المجتمعِ بأسره:

أ. تحصينُ المجتمعِ من الفساد: لأنَّ كلَّ فردٍ يصبحُ رقيبًا على نفسه.

ب. تعزيزُ الثقةِ المتبادلة: فحين يلتزمُ الأفرادُ بالرَّقابةِ الذَّاتيَّةِ تقلُّ الحاجةُ إلى القوانينِ الردعية.

ج. ترسيخُ العدلِ: لأنَّ الرَّقابةَ لا تتأثرُ بالمكانةِ أو النفوذِ، بل تشملُ الجميعَ على حدٍّ سواء. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ**﴾ [النساء: ١٣٥].

يتَّضحُ ممّا سبقَ أنَّ الرَّقابةَ الذَّاتيَّةَ في القرآنِ الكريمِ تمثّلُ نظامًا خُلُقيّا وروحيًّا متكاملاً، يتجاوزُ حدودَ الرَّقابةِ البشرية. فهي داخليَّة، شاملة، دائمة، وتربوية، وتقومُ على شعورِ المؤمنِ الدائمِ بأنَّ الله يراه ويحاسبه. وبمقارنتها مع الرَّقابةِ الخارجيَّةِ، نلحظُ أنّها أعمقُ أثرًا وأوسعُ نطاقًا، لأنَّها لا تنضبطُ بالزمانِ والمكانِ، بل تمتدُّ إلى أعماقِ الضميرِ الإنسانيِّ.

ثانيًا: دورُ البُعدِ الإيمانيِّ في الرَّقابةِ الذَّاتيةِ: الإيمانُ واستحضارُ الجزاءِ والمحاسبةِ الأُخرويَّةِ

تُعَدُّ الرَّقابةُ الذَّاتيةُ في الإعلامِ الإسلاميِّ نتاجًا مباشرًا للبُعدِ الإيمانيِّ للفردِ؛ حيثُ يُصبحُ الإيمانُ باللهِ والوعيُ بالجزاءِ الأُخرويِّ المرجعيَّةَ الأساس التي تضبطُ السلوكَ الإعلاميَّ، وتَضمَنُ التزامَه بالصِّدقِ والعَدلِ والمسؤوليَّةِ. فالرَّقابةُ الذَّاتيةُ ليست مجرَّدَ التزامٍ خارجيٍّ، بل هي التزامٌ داخليٌّ ينبعُ من الوعيِ بالمحاسبةِ الإلهيَّةِ، مستحضرًا قولَه تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾ [الأنبياء:١٠٧]، الذي يُؤكِّدُ على ضرورةِ التَّحلِّي بالصِّدقِ في نقلِ الرِّسالةِ، حتَّى في غيابِ أيِّ رقابةٍ بشريَّةٍ.

١- الإيمانُ مرجعيَّةٌ للرَّقابةِ الذَّاتيةِ:

يُشكِّلُ الإيمانُ الأساسَ الذي يوجِّهُ الفردَ للتصرُّفِ وفقَ القيمِ الخُلُقيَّةِ والواجباتِ الدِّينيَّةِ قبلَ

أيِّ ضغطٍ خارجيٍّ. يجعلُ هذا البُعدُ الإنسانَ واعيًا بعواقبِ أفعاله، كما في قولِ الله -تعالى- عن يوسفَ عليه السلام: ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾ [يوسف: ٢٣]، الذي يُبيِّنُ كيفَ أنَّ الاعتمادَ على الإيمانِ يَضمنُ ضبطَ الذَّاتِ حتَّى في المواقفِ المُغريةِ.

٢- استحضارُ الجزاءِ الأُخرويِّ:

يعملُ وعيُ الفردِ بالجزاءِ الأُخرويِّ حافزًا مستمرًّا للصِّدقِ والانضباطِ في التَّعاملِ الإعلاميِّ. فاستحضارُ الحسابِ الإلهيِّ يجعلُ الإعلاميَّ يتحقَّقُ من صحَّةِ المعلوماتِ قبلَ نشرِها، ويَجنُبُ الإضرارَ بالآخرين، كما جاءَ في قصَّةِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا**﴾ [البقرة: ١٢٦]. يُحوِّلُ هذا الوعيُ الرَّقابةَ الذَّاتيةَ إلى فِعلٍ دائمٍ، متجاوزًا حدودَ الرَّقابةِ الخارجيَّةِ المؤقَّتةِ.

٣- المُحاسبةُ الأُخرويَّةُ: رقابةٌ تتجاوزُ الزَّمنَ

تَعني المُحاسبةُ الأُخرويَّةُ أنَّ الفردَ يَخضَعُ لرَقابةٍ مستمرَّةٍ ليس فقط في لحظاتِ العملِ الإعلاميِّ، بل على أثرِ أفعاله في المجتمعِ وعلى مَرِّ الزَّمنِ. النَّبيُّ موسى عليه السلام مثالٌ على ذلك؛ إذ كان دائمَ السَّعي لتحقيقِ العَدلِ، مستحضرًا قولَه تعالى: ﴿**وَذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا**﴾ [الطور: ١١]. هذا الوعيُ بالمحاسبةِ المستمرَّةِ يجعلُ الإعلاميَّ ملتزمًا بالقيمِ الخُلُقيَّةِ والشَّفافيةِ حتَّى في غيابِ المُراقبةِ البشريَّةِ.

٤- البُعدُ الإيمانيُّ في الفكرِ الإسلاميِّ الحديثِ والمعاصرِ:

لتحليلِ هذا البُعدِ يمكنُ الاستئناسُ بأفكارِ مفكِّرين تناولوا الرَّقابةَ الذَّاتيةَ في الإعلامِ الإسلاميِّ، مثل:

أ. (علي شريعتي): يحتلُّ البُعدُ الإيمانيُّ مكانةً محوريَّةً في فكرِه؛ حيثُ لا يُقدِّمُه في كتابه «الأخلاق للشباب والطلاب والناشئة» باعتبارِه حالةً وجدانيَّةً فرديَّةً فقط، بل طاقةً تغييريَّةً

مرتبطةٍ بالوعيِ الخُلُقيّ والاجتماعيِّ. فالإيمانُ عندَه يتجسَّدُ في كونِه قاعدةً للتربيةِ الرُّوحيَّةِ، لكنَّه يتجاوزُ ذلك ليغدو قوَّةً تحريريَّةً تسعى إلى تخليصِ الإنسانِ من العبوديَّةِ لذاتِه أو للمجتمعِ الظَّالمِ. وقد ركَّز (شريعتي) على أنَّ الإيمانَ الحقَّ لا ينفصلُ عن المسؤوليَّةِ الخُلُقيَّةِ؛ إذ يُربِّي النَّاشئةَ على التَّضحيةِ والإيثارِ والعَدالةِ، ويصوغُ شخصيَّةً شبابيَّةً قادرةً على الجمعِ بين الرُّوحيَّةِ والعملِ الاجتماعيِّ المقاومِ. [1]

ب. (مرتضى مطهري): في كتابِه «ثبات الأخلاق»، تناولَ البُعدَ الإيمانيَّ من منظورٍ عقلانيٍّ وخُلُقيّ في آنٍ واحدٍ. فهو يرى أنَّ الإيمانَ بالله لا يُختزلُ في المشاعرِ العابرةِ، بل هو تأسيسٌ لنظامٍ خُلُقيّ ثابتٍ يحمي الإنسانَ من نسبيَّةِ القيمِ وتقلُّباتِ الأهواءِ. فالإيمانُ في نظرِ مطهري هو المرجعيَّةُ العُليا التي تضمنُ استقرارَ المبادئِ الخُلُقيَّةِ عبرَ التَّاريخِ، وتمنعُها من الانهيارِ أمامَ التَّيَّاراتِ الماديَّةِ والنفعيَّةِ. وبذلك يُصبحُ الإيمانُ قاعدةً صُلبةً تُبنى عليها شخصيَّةُ الفردِ والمجتمعِ؛ بحيثُ يتموضعُ في قلبِ مشروعٍ إصلاحيٍّ يربطُ بين العقلانيَّةِ واليقينِ الرُّوحيِّ. [2]

ج. (مالك بن نبي): عالجَ الإيمانَ في إطارٍ حضاريٍّ في كتابِه «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي». فهو يرى أنَّ أزمةَ المسلمين ليست أزمةَ مادَّةٍ أو مواردَ، بل أزمةَ أفكارٍ، وأنَّ فقدانَ البُعدِ الإيمانيِّ جعلَ الأفكارَ تتحوَّلُ إلى مجرَّدِ شعاراتٍ فارغةٍ لا تُحرِّكُ الوجودَ الاجتماعيَّ. فالإيمانُ عندَ (بن نبي) هو الضَّامنُ لحيويَّةِ الفكرةِ وقدرتِها على تجنيدِ الإنسانِ في مشروعٍ حضاريٍّ. وبدونِه يغدو المجتمعُ خاملاً وعاجزًا عن مواجهةِ تحدِّياتِ العصرِ. لذلك فإنَّ الإيمانَ ليس مجرَّدَ اعتقادٍ فرديٍّ، بل هو طاقةٌ اجتماعيَّةٌ تُعيدُ صياغةَ الإنسانِ وتفتحُ أمامَه أُفُقَ التمدُّنِ والنَّهضةِ. [3]

١ - علي شريعتي: الأخلاق للشباب والطلبة والناشئة، ص٣٧.
٢ - مرتضى مطهري: ثبات الأخلاق، ص١١٢.
٣ - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص٧٧.

د. (عبد الوهاب المسيري): يرى (ممدوح الشيخ) في كتابه «عبد الوهاب المسيري: من الماديَّة إلى الإنسانيَّة الإسلاميَّة»، أنَّ البُعدَ الإيمانيَّ يُمثِّلُ حجرَ الزاويةِ في تحوُّله الفكريِّ من الانبهارِ بالنموذجِ الغربيِّ المادِّيِّ إلى بناءِ مشروعٍ نقديٍّ يستندُ إلى المرجعيَّةِ الإسلاميَّة. فالإيمانُ عندَ (المسيري) يُعيدُ الاعتبارَ للإنسانِ بوصفه كائنًا متجاوزًا للمادَّة، ويُحرِّرُه من اختزالِه في بُعدِه الاستهلاكيِّ أو الوظيفيِّ. وقد رأى أنَّ الإيمانَ يُقدِّمُ أفقًا إنسانيًّا رحبًا يُوازنُ بين العقلِ والقيمِ، ويمنحُ المجتمعَ الإسلاميَّ القدرةَ على مقاومةِ الهيمنةِ الفكريَّةِ الغربيَّة، من خلالِ استعادةِ مركزيَّةِ المعنى والقيمةِ في مواجهةِ مركزيَّةِ المادَّة. [1]

٥- الأثرُ على الممارسةِ الإعلاميَّة:

يُعزِّزُ الاعتمادُ على البُعدِ الإيمانيِّ في الرَّقابةِ الذَّاتيةِ جودةَ المحتوى الإعلاميِّ، ويكفلُ نزاهةَ الرِّسالةِ، ويزيدُ ثقةَ الجمهورِ في الإعلام. فالصَّحفيُّ أو الإعلاميُّ المؤمنُ بمحاسبةِ الله يُمارسُ دورَه بصدقٍ وشفافيَّة، ويَحترمُ الكلمةَ بصفتها أمانةً، متجنِّبًا التَّضليلَ أو الانحيازَ للمصالحِ الشَّخصيَّةِ أو السِّياسيَّة، مستلهمًا في ذلك نماذجَ الأنبياءِ، مثل النبيّ محمَّد ﷺ الذي حرصَ على قولِ الحقِّ ونشرِ الرِّسالةِ دونَ تحريفٍ، مستندًا في ذلك إلى الرَّقابةِ الإلهيَّة.

ثالثًا: مرتكزاتُ الإعلامِ الإسلاميِّ من منظورٍ قرآنيٍّ: الضَّميرُ -المسؤوليَّةُ -الصِّدقُ -الحِكمةُ

لا يقتصرُ الإعلامُ الإسلاميُّ على نقلِ الأخبارِ والمعلوماتِ، بل هو أداةٌ لتحقيقِ رسالةٍ خُلُقيّةٍ

١ - ممدوح الشيخ: عبد الوهاب المسيري: من المادية إلى الإنسانية الإسلامية، ص١٦١.

تربويَّةٍ تهدفُ إلى إصلاحِ الفردِ والمجتمعِ. ومن هذا المنطلقِ يقومُ الإعلامُ بمجموعةٍ من المرتكزاتِ التي يُحدِّدها القرآنُ الكريمُ وتتكاملُ فيما بينها لضمانِ إنتاجِ خطابٍ إعلاميٍّ مسؤولٍ وملتزمٍ بالقيمِ.

١- الضَّميرُ الحارسُ الدَّاخليُّ للكلمةِ:

يُمثِّلُ الضَّميرُ صِمامَ الأمانِ الذي يَحمي الإعلاميَّ من الانحرافِ عن الصَّوابِ، ويجعلُه يُوازنُ بين حرِّيَّةِ التَّعبيرِ ومسؤوليَّةِ الكلمةِ. يَحثُّ القرآنُ على مراقبةِ النَّفسِ قبلَ مراقبةِ الآخرين، كما جاء في قولِه تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢٨١]، ما يُذكِّرُ الإعلاميَّ بأنَّ كلَّ كلمةٍ يَنطقُ بها ستكونُ مَوضِعَ محاسبةٍ أمامَ اللهِ. ليسَ الضَّميرُ هنا مجرَّدَ شعورٍ نفسيٍّ، بل قوَّةً داخليَّةً تُوجِّهُ العملَ الإعلاميَّ نحوَ الصِّدقِ والنَّزاهةِ، وتَحمي الرِّسالةَ من التَّحريفِ أو الاستغلالِ لأغراضٍ شخصيَّةٍ أو سياسيَّةٍ.

٢- المسؤوليَّةُ: الكلمةُ أمانةٌ:

يُؤكِّدُ الإعلامُ الإسلاميُّ أنَّ الكلمةَ أمانةٌ ينبغي الحفاظُ عليها، فلا يجوزُ نشرُ معلوماتٍ دونَ تحقُّقٍ، ولا استغلالُ المنبرِ الإعلاميِّ للإضرارِ بالآخرين. ويَبرزُ قولُه تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**﴾ [النِّساء: ٥٨]. إنَّ الالتزامَ بالمسؤوليَّةِ جزءٌ من الرَّقابةِ الذَّاتيةِ؛ إذ يجبُ على الإعلاميِّ التَّعاملُ مع كلِّ معلومةٍ كما لو كانت أمانةً مُوجَّهةً إلى اللهِ والمجتمعِ. ويتحقَّقُ ذلك من خلالِ تدقيقِ الأخبارِ والتَّحقُّقِ من المصادرِ، مع مراعاةِ تبِعاتِ كلِّ خطابٍ على المتلقِّي والمجتمعِ كلّه.

٣- الصِّدقُ: معيارُ الخطابِ الإعلاميِّ

الصِّدقُ رُكنٌ أساس في الإعلامِ الإسلاميِّ، فهو يَضمنُ مصداقيَّةَ الرِّسالةِ ويَكسبُ ثقةَ

الجمهورِ. فالآياتُ القرآنيَّةُ متعدِّدةٌ في دعوةِ الإنسانِ للصِّدقِ، منها: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [البقرة: ٨٣]، وقولُه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩]. يتجاوزُ الصِّدقُ هنا مجرَّدَ تجنُّبِ الكذبِ، ليشملَ الدِّقَّةَ في عرضِ المعلوماتِ، والابتعادَ عن التَّضليلِ أو الإثارةِ الزَّائدةِ، وضَبطَ المعاييرِ المهنيَّةِ والخُلُقيَّةِ في الإنتاجِ الإعلاميِّ.

٤- الحِكمةُ: ضبطُ الكلمةِ بميزانِ العقلِ والرُّوحِ

تَجعلُ الحِكمةُ الإعلاميَّ يُوازنُ بين حرِّيَّةِ التَّعبيرِ ومتطلَّباتِ الصَّالحِ العامِّ، بين العقلِ والرُّوحِ، وبين التَّأثيرِ النَّفسيِّ للرِّسالةِ والأثرِ الخُلُقيّ، قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ [النحل: ١٢٥]. ليست الحِكمةُ هنا مجرَّدَ فنِّ القولِ، بل القدرة على توجيهِ الرِّسالةِ بما يُحقِّقُ الأثرَ الإيجابيَّ على المتلقِّي دونَ الإضرارِ أو التَّلاعُبِ بمشاعِرِه.

٥- تكامُلُ المرتكزاتِ الأربعةِ:

لا تَعملُ هذه المرتكزاتُ الأربعةُ -الضَّميرُ، والمسؤوليَّةُ، والصِّدقُ، والحِكمةُ- على حِدةٍ، بل تتكاملُ لتُشكِّلَ إطارًا خُلُقيّا متكاملاً للإعلامِ الإسلاميِّ. فالضَّميرُ يُوجِّهُ السُّلوكَ، والمسؤوليَّةُ تُحدِّدُ نطاقَ العملِ، والصِّدقُ يَضمنُ النَّزاهةَ، والحِكمةُ تُحقِّقُ التَّوازنَ بين القوَّةِ والرَّحمةِ في توصيلِ الرِّسالةِ. يَخلقُ هذا التَّكامُلُ إعلامًا قادرًا على أن يكونَ أداةً للتَّربيةِ والتَّثقيفِ والإصلاحِ الاجتماعيِّ، مُستلهمًا من القرآنِ الكريمِ والتَّجربةِ النَّبويَّةِ في تبليغِ الرِّسالةِ.

٦- إسقاطاتٌ على الممارسةِ الإعلاميَّةِ:

يَنعكسُ الاعتمادُ على هذه المرتكزاتِ بشكلٍ مباشرٍ على جودةِ المحتوى، وطريقةِ عرضِه،

وهيكليَّةِ المؤسَّساتِ الإعلاميَّةِ، وسلوكِ الإعلاميِّين تجاهَ جمهورِهم. الإعلاميُّ الذي يَلتزمُ بالضَّميرِ يَتحقَّقُ من المعلوماتِ قبلَ نشرِها، ويُوازنُ بين حرِّيَّةِ التَّعبيرِ والمسؤوليَّةِ الاجتماعيَّةِ. ومن يَضعُ الصِّدقَ معيارًا في خطابِه، يَكسبُ ثقةَ المتلقِّي ويُعزِّزُ مصداقيَّةَ المؤسَّسةِ الإعلاميَّةِ. أمَّا الحِكمةُ فهي التي تُوجِّهُ أسلوبَ الإقناعِ والتَّأثيرِ، وتُقلِّلُ من خطرِ الانحرافِ أو الاستغلالِ الإعلاميِّ. وبالتَّالي، يُصبِحُ الإعلامُ أداةً فاعلةً في بناءِ مجتمعٍ واعٍ، وقِيَمُه مُستمدَّةٌ من المرجعيَّةِ القرآنيَّةِ.

رابعًا: آليّاتُ القرآنِ لتقويةِ الشعورِ بالرّقابةِ الإلهيّةِ

يُشكِّلُ القرآنُ الكريمُ المرجعيّةَ الأساس للرّقابةِ الذاتيّةِ لدى الفردِ المسلمِ؛ إذ يُقدِّمُ مجموعةً من الآليّاتِ التي تُعزِّزُ إحساسَ الإنسانِ بمراقبةِ اللهِ المستمرّةِ لكلِّ أقوالِه وأفعالِه، وبالتالي تحفيزِ الالتزامِ بالقيمِ الخُلُقيَّةِ والسلوكيّةِ.

تتجلّى الرّقابةُ الذاتيّةُ القرآنيّةُ في إدراكِ الإنسانِ أنّ اللهَ عليمٌ بكلِّ خافيةٍ وظاهرةٍ، وأنَّ كلَّ تصرّفٍ يخضعُ للحسابِ في الدنيا والآخرةِ. قال اللهُ تعالى ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ [النساء: ١٣١]، مؤكِّدًا بذلك على إحاطةِ اللهِ بكلِّ شيءٍ. كما يقولُ ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وهو ما يُرسِّخُ في النفوسِ شعورَ الرّقابةِ الداخليّةِ المستمرّةِ.

١- الآليّةُ الأولى: استحضارُ علمِ اللهِ وإحاطتِه بكلِّ شيءٍ

يُحفِّزُ الوعيُ بأنَّ اللهَ عليمٌ بأفكارِ الإنسانِ وأفعالِه على ضبطِ النفسِ. فالآيةُ: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى**﴾ [العلق: ١٤] تُذكِّرُ الإنسانَ باستمرارِ مراقبةِ اللهِ لكلِّ تصرّفاتِه، ما يُرسِّخُ الشعورَ بالمسؤوليّةِ الفرديّةِ ويُعزِّزُ الالتزامَ الذاتيَّ.

٢- الآليّةُ الثانيةُ: تذكيرُ الإنسانِ بمحاسبتِهِ يومَ القيامةِ

يحثُّ القرآنُ الإنسانَ على التذكّرِ الدائمِ للحسابِ والجزاءِ الأخرويِّ: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥]. يحثُّ هذا التذكيرُ على الموازنةِ بين الفعلِ والصوابِ، ويعملُ حافزًا داخليًّا للالتزامِ بالحقِّ والصوابِ في جميعِ المواقفِ، بما فيها المواقفُ الإعلاميّةُ والتواصليّةُ.

٣- الآليّةُ الثالثةُ: استدعاءُ قصصِ الأنبياءِ باعتبارها نماذجَ للرّقابةِ الذاتيّةِ

يُقدِّمُ القرآنُ الكريمُ قصصَ الأنبياءِ عليهم السلام نماذجَ للتقيُّدِ بالرّقابةِ الذاتيّةِ في المواقفِ المختلفةِ، من خلالِ إبراهيمَ عليه السلام في الثباتِ على الحقِّ، ويوسفَ عليه السلام في الصبرِ أمامَ الإغراءاتِ، وموسى عليه السلام في تطبيقِ العدلِ، ومريمَ عليها السلام في الصمتِ الواعي، والنبيِّ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم في البلاغِ والمسؤوليّةِ.

٤- الآليّةُ الرابعةُ: الجمعُ بين الترغيبِ والترهيبِ

القرآنُ يمزجُ بين الحثِّ على الخيرِ والترغيبِ بالجزاءِ الإلهيِّ، والتحذيرِ من العقابِ ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمُ الْجَنَّةُ وَنَجْزِي الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّاسَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [النحل: ٩٧-٩٨]. تُقوِّي هذه الثنائيّةُ الالتزامَ الداخليَّ وتخلقُ إحساسًا مستمرًّا بالمسؤوليّةِ.

٥- الآليّةُ الخامسةُ: إبرازُ أثرِ الكلمةِ في المجتمعِ

يُوضِّحُ القرآنُ أنَّ للكلمةِ أثرًا على الفردِ والمجتمعِ، ما يجعلُ الالتزامَ بالصدقِ والحقِّ واجبًا ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة:١١٩]. يُرسِّخُ الشعورُ بمسؤوليّةِ الكلمةِ الرّقابةَ الذاتيّةَ ويُعزِّزُ الالتزامَ الخُلُقيّ.

بناءً على ما سبقَ، نستنتجُ أنَّ الآليّاتِ القرآنيّةَ للرّقابةِ الذاتيّةِ تعكسُ كيف أنَّ الالتزامَ الدينيَّ يُشكِّلُ حافزًا داخليًّا مستمرًّا لتنظيمِ السلوكِ الفرديِّ والاجتماعيِّ. ويُشيرُ هذا البعدُ إلى علاقةٍ مباشرةٍ مع مفهومِ الضبطِ الاجتماعيِّ كما صاغه (إميل دوركايم)؛ حيث يُسهِمُ الشعورُ بالمسؤوليّةِ أمامَ اللهِ في ترسيخِ النظامِ القيميِّ داخلَ المجتمعِ ويُحفِّزُ الأفرادَ على احترامِ القوانينِ الخُلُقيَّة، ما يُعزِّزُ التكاملَ بين الالتزامِ الفرديِّ والنظامِ الاجتماعيِّ.

المحورُ الخامسُ: نماذجُ قرآنيّةٌ للرّقابةِ الذاتيّةِ في المواقفِ الإعلاميّةِ أو التواصليّةِ

يحتلُّ القرآنُ الكريمُ مكانةً محوريّةً في صياغةِ مفهومِ الرّقابةِ الذاتيّةِ بوصفِها آليّةً خُلُقيّةً تُوجِّهُ سلوكَ الإنسانِ في المجالينِ الفرديِّ والجماعيِّ، وخاصّةً في الفضاءِ الإعلاميِّ والتواصليِّ. فالخطابُ الإعلاميُّ ليس مجرّدَ نقلٍ للأخبارِ أو إنتاجٍ للمعرفةِ، بل هو ممارسةٌ تواصليّةٌ تُبنى على مقولاتِ الصّدقِ، والعدلِ، وعدمِ الإضرارِ بالآخرِ. من هنا تبرزُ أهميّةُ النماذجِ القرآنيّةِ؛ حيثُ نجدُ أنَّ الأنبياءَ مارسوا نوعًا من الرّقابةِ الذاتيّةِ في لحظاتٍ مفصليّةٍ من حياتِهم، يمكنُ إسقاطُها على التحدّياتِ الرّاهنةِ التي يعيشُها الإعلامُ المعاصرُ في سياقِ العولمةِ، وصعودِ الشعبويّةِ، وانتشارِ الأخبارِ المضلِّلةِ.

١- نموذجُ إبراهيمَ عليه السلام: موازنةٌ بين الحجّةِ العاليةِ والحكمةِ التواصليّةِ

يُقدِّمُ القرآنُ الكريمُ إبراهيمَ عليه السلام باعتبارِه أحدَ أبرزِ الأنبياءِ الذينَ مارسوا الرّقابةَ الذاتيّةَ في خطابِهم الإعلاميِّ والدّعويِّ. ففي حوارِه مع قومِه حولَ عبادةِ الأصنامِ، نلمسُ حضورًا قويًّا للصّدقِ الداخليِّ، وللوعيِ بأنَّ الخطابَ مُوجَّهٌ إلى الآخرِ لا بقصدِ التحدّي الأجوفِ، بل من أجلِ إقناعِه بالحكمةِ. قالَ تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

تجلّت الرّقابةُ الذاتيّةُ عندَ إبراهيمَ عليه السلام في التزامِه بحدودِ الصّدقِ، وعدمِ الانزلاقِ إلى العنفِ الرمزيِّ أو المبالغاتِ الخطابيّةِ. لقد كانَ خطابُهُ مبنيًّا على وعيٍ بالمسؤوليّةِ أمامَ اللهِ، ما جعلَهُ يجمعُ بين قوّةِ الحجّةِ ورهافةِ الأسلوبِ.

يمكنُ قراءةُ هذا الموقفِ سوسيولوجيًّا في ضوءِ النّظريّةِ التواصليّةِ لدى مدرسةِ (فرنكفورت)، حيثُ يتأسّسُ الحوارُ على الاعترافِ بالآخرِ والسّعيِ للإقناعِ عبرَ الحججِ لا عبرَ الإكراهِ.[1]

فالرّقابةُ الذاتيّةُ هنا ليست قيدًا على حريّةِ الخطابِ، بل هي شرطٌ لتحويلِه إلى عمليّةٍ تواصليّةٍ عقلانيّةٍ تُتيحُ للآخرِ إمكانيّةَ الاقتناعِ. مارسَ إبراهيمُ عليه السلام ما يُشبهُ «الشّفافيّةَ الخُلُقيّةَ» التي تمنعُ التضليلَ والتّلاعبَ بالمستمعينَ، وهو ما نحتاجُهُ اليومَ في الإعلامِ الذي تُحاصرُهُ الدّعايةُ والأخبارُ الكاذبةُ.

٢- نموذجُ يوسفَ عليه السلام: الإعلامُ أداةٌ لمقاومةِ الظّلمِ وكشفِ الحقيقةِ

يُعتبرُ يوسفُ عليه السلام مثالاً بارزًا على الرّقابةِ الذّاتيّةِ في المجالِ الإعلاميِّ، خاصّةً في لحظةِ السّجنِ حينَ استغلَّ قدرتَهُ على تفسيرِ الأحلامِ لتبليغِ رسالتِه الدّعويّةِ بصدقٍ وأمانةٍ. قالَ تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

تقومُ الرّقابةُ الذّاتيّةُ هنا على استخدامِ الإعلامِ – في شكلِه البدائيِّ: أي الخطابِ الشّفهيِّ – وسيلةً لمقاومةِ الظّلمِ وتصحيحِ الوعيِ الجماعيِّ. لم يستغلَّ يوسفُ عليه السلام قدراتِه للتّرويجِ لنفسِه أو لتعزيزِ مكانتِه داخلَ السّجنِ، بل مارسَ رقابةً ذاتيّةً صارمةً جعلتْ خطابَهُ مرتبطًا بالحقيقةِ والعدلِ، بعيدًا عن أيِّ منفعةٍ شخصيّةٍ.

1 - Jürgen Habermas, The Theory of Communicative Action, Vol. 1: Reason and the Rationalization of Society, p. 286

يمكنُ النّظرُ إلى تجربةِ يوسفَ عليه السلام سوسيولوجيًّا في ضوءِ نظريّةِ الهيمنةِ الرمزيّةِ عند (بيير بورديو)، الذي يرى أنَّ اللّغةَ والخطابَ يمكنُ أن يتحوّلا إلى أدواتٍ للسّيطرةِ. [1]

غيرَ أنَّ يوسفَ عليه السلام قلبَ المعادلةَ، فقد استخدمَ الخطابَ لتحريرِ وعيِ السّجناءِ لا لإخضاعِهم. هنا تتجلّى الرّقابةُ الذّاتيّةُ بوصفها آليَّةً لمقاومةِ التّلاعبِ الرمزيِّ، وهو درسٌ بالغُ الأهمّيّةِ في زمنٍ تُستخدَمُ فيه وسائلُ الإعلامِ لتكريسِ الاستبدادِ أو تضليلِ الجماهيرِ.

٣- نموذجُ موسى عليه السلام: بينَ الصّدقِ الرّساليِّ والتّحدّي الإعلاميِّ

واجهَ موسى عليه السلام فرعونَ في معركةٍ إعلاميّةٍ كبرى؛ حيثُ لم تكُنِ المواجهةُ مقتصرةً على القوّةِ الماديّةِ، بل شملتْ أيضًا الفضاءَ الرمزيَّ للخطابِ والإقناعِ. قالَ تعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: ١٠٤].

تمثّلتِ الرّقابةُ الذّاتيّةُ عندَ موسى عليه السلام في التزامِه برسالتِه دونَ تحريفٍ أو مجاملةٍ، رغمَ الضّغوطِ التي مارسَها فرعونُ ونُخبتُهُ، فلم يسمحْ موسى عليه السلام لنفسِه بالانجرارِ إلى خطابٍ يُرضي المستبدَّ، بل ظلَّ محافظًا على صدقِه الدّاخليِّ، وهو ما جعلَهُ نموذجًا للرّقابةِ الذّاتيّةِ في مواجهةِ الإغراءاتِ السّلطويّةِ. ويمكنُ إسقاطُ هذا النّموذجِ سوسيولوجيًّا على مقولاتِ (إميل دوركايم) عن الضّبطِ الاجتماعيِّ؛ حيثُ يُشيرُ إلى أنَّ القيمَ والمعاييرَ تُمارسُ قوّةً إلزاميّةً على الأفرادِ. [2]

لكن في حالةِ موسى عليه السلام، لم تكُنِ الرّقابةُ الذّاتيّةُ فقط استجابةً لقواعدٍ اجتماعيّةٍ، بل كانتْ انبثاقًا من إيمانٍ داخليٍّ يعلو على أيِّ سلطةٍ دنيويّةٍ؛ حيثُ جسّدَ موسى عليه السلام نموذجَ الإعلاميِّ أو المبلِّغِ الذي يرفضُ «الرّقابةَ الخارجيّةَ» المفروضةَ من السّلطةِ، ويستبدلُها برقابةٍ ذاتيّةٍ تقومُ على الوفاءِ للرّسالةِ الإلهيّةِ.

1 -Pierre Bourdieu, Ce que parler veut dire. L›économie des échanges linguistiques, p.45.

2 - Ēmile Durkheim, . Les Règles de la méthode sociologique, p. 38.

٤- نموذجُ مريمَ عليها السلام: الصّدقُ الدّاخليُّ في مواجهةِ خطابِ التّشويهِ

تعرّضتْ مريمُ عليها السلام لحملةِ تشويهٍ مجتمعيّةٍ بعدَ ولادةِ عيسى عليه السلام دونَ زواجٍ، وهو موقفٌ إعلاميٌّ-تواصليٌّ بالغُ الخطورةِ؛ حيث يُصوِّرُ القرآنُ صمودَها الدّاخليَّ قائلاً: ﴿**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾ [مريم: ٢٩].

تجسّدتِ الرّقابةُ الذّاتيّةُ هنا في اختيارِها الصّمتَ والاحتكامَ إلى برهانٍ ربّانيٍّ بدلَ الدّخولِ في جدلٍ كلاميٍّ لا طائلَ منهُ. إنَّها رقابةٌ على القولِ في لحظةٍ شديدةِ الحرجِ، بما يُبرزُ قيمةَ الصّدقِ الدّاخليِّ والثّقةِ في المساندةِ الإلهيّةِ.

ويمكنُ قراءةُ الموقفِ سوسيولوجيًّا عبرَ ما يُسمّيه (بورديو) بـ "رأسمالِ الصّمتِ" الذي قد يتحوّلُ أحيانًا إلى أداةِ قوّةٍ رمزيّةٍ. [1]

فمريمُ عليها السلام لم تدخُلْ في لعبةِ الخطابِ السّلطويِّ أو المجتمعيِّ، بل مارستْ رقابةً ذاتيّةً عبرَ الصّمتِ الذي كشفَ زيفَ الاتّهاماتِ. وهذا درسٌ إعلاميٌّ بليغٌ: أحيانًا تعني الرّقابةُ الذّاتيّةُ القدرةَ على الامتناعِ عن الخطابِ بدلَ الانخراطِ في الجدلِ العقيمِ.

٥- نموذجُ النّبيِّ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم: الرّقابةُ الذّاتيّةُ منهجٌ دعويٌّ

أرسى النّبيُّ محمّدٌ صلى الله عليه وسلم أعلى مستوياتِ الرّقابةِ الذّاتيّةِ في خطابِه التّواصليِّ والإعلاميِّ؛ حيثُ كان دائمًا ملتزمًا بالصّدقِ والعدلِ. قالَ تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

واجهَ النّبيُّ صلى الله عليه وسلم إعلامَ قريشٍ المليءَ بالتّشويهِ والافتراءِ، لكنَّهُ لم ينجرَّ إلى خطابِ الكراهيّةِ أو المزايَداتِ الكلاميّةِ، بل ظلَّ خطابُهُ محكومًا برقابةٍ ذاتيّةٍ نابعةٍ من وعيهِ برسالتِه، ومن يقينِه بأنَّ البلاغَ مسؤوليّةٌ أمامَ اللهِ قبلَ أن يكونَ أمامَ النّاسِ.

1 - Pierre, Bourdieu, Langage et pouvoir symbolique. Paris: Seuil, 2001, p. 112.

يمكنُ إسقاطُ هذا النّموذجِ سوسيولوجيًّا على مفهومِ التّضامنِ الاجتماعيِّ عندَ (دوركايم)؛ حيثُ يرى أنَّ المجتمعَ يحتاجُ إلى معاييرَ خُلُقيّةٍ عُليا تُحافظُ على تماسكِهِ.[1]

لم يكُنْ خطابُ النّبيِّ ﷺ مجرّدَ بلاغٍ دينيٍّ، بل ممارسةً تواصليّةً حافظتْ على وحدةِ الجماعةِ النّاشئةِ ومنعتْ انقسامَها رغمَ العداءِ الخارجيِّ. فالرّقابةُ الذّاتيّةُ هنا كانتْ أداةً لبناءِ الثّقةِ والتّماسكِ الاجتماعيِّ، وهو ما يُوازي اليوم حاجةَ الإعلامِ إلى تعزيزِ الوحدةِ الاجتماعيّةِ بدلَ تمزيقِها.

٦- نموذجُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ عليه السلام: الرّقابةُ الذّاتيّةُ والعدالةُ في القولِ

يُمثّلُ الإمامُ عليٌّ عليه السلام استمرارًا للنّموذجِ النّبويِّ؛ إذ كان خطابُهُ السّياسيُّ والإعلاميُّ يقومُ على العدلِ والرّقابةِ الذّاتيّةِ. وردَ في قولِهِ المشهورِ: «انظرْ إلى ما قيلَ، ولا تنظرْ إلى مَن قالَ»، وهو توجيهٌ خُلُقيّ عميقٌ يُبرزُ أنَّ قيمةَ الخطابِ تتحدَّدُ بمدى التزامِهِ بالحقيقةِ لا بالهويّةِ الاجتماعيّةِ للمتكلّمِ.

ويمكنُ ربطُ هذا النّموذجِ سوسيولوجيًّا بما يُسمَّى في أدبيّاتِ مدرسةِ (فرانكفورت) بخُلُقيّاتِ النّقاشِ؛ حيثُ لا يتعلَّقُ معيارُ الصّحّةِ في الخطابِ بالسّلطةِ أو الموقعِ الاجتماعيِّ، بل بقدرةِ الحجّةِ على الإقناعِ عقلانيًّا.[2]

فالإمامُ عليٌّ عليه السلام بعصمته الذاتيَّة لم يسمحْ للانحيازات أو الولاءاتِ أن تُحدِّدَ صدقيّةَ الخطابِ. في المجالِ الإعلاميِّ المعاصرِ، يُوازي هذا المبدأُ استقلاليّةَ الإعلامِ عن الضّغوطِ السّياسيّةِ والاقتصاديّةِ.

1 - Ēmile, Durkheim . De la division du travail social, p. 213.

2 - Jürgen. Habermas, Moral Consciousness and Communicative Action, p. 66.

٧- نموذجُ القرآنِ في النّهيِ عن إشاعةِ الفاحشةِ

من أرقى صورِ الرّقابةِ الذّاتيّةِ التي يطرحُها القرآنُ تحذيرُهُ من ترويجِ الشّائعاتِ والفواحشِ إعلاميًّا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور:١٩].

تُؤكِّدُ الآيةُ أنَّ الرّقابةَ الذّاتيّةَ لا تقتصرُ على ضبطِ الفردِ لنفسِه، بل تشملُ مقاومةَ إغراءِ الانخراطِ في نشرِ الشّائعاتِ والأكاذيبِ التي تُهدِّدُ تماسكَ الجماعةِ. فهي بذلك رقابةٌ جماعيّةٌ ذاتيّةٌ تُمارسُها الضّمائرُ الحيّةُ ضدَّ الانزلاقِ الإعلاميِّ.

سوسيولوجيًّا يمكنُ ربطُ هذا التّصوّرِ بمفهومِ "الأنومي/الفوضى القيميّة" عندَ (دوركايم)؛ حيثُ يؤدّي غيابُ القيمِ إلى تفكُّكِ المجتمعِ.[1]

تعني إشاعةُ الفاحشةِ إعلاميًّا انهيارَ المعاييرِ الخُلُقيّةِ، بينما الرّقابةُ الذّاتيّةُ تُشكّلُ صمّامَ أمانٍ يُعيدُ الانسجامَ إلى الجماعةِ.

وتُقدِّمُ لنا هذه النّماذجُ القرآنيّةُ رؤًى ثريّةً في كيفيّةِ ممارسةِ الرّقابةِ الذّاتيّةِ في المواقفِ الإعلاميّةِ والتّواصليّةِ. وهي لا تقتصرُ على الصّدقِ الفرديِّ، بل تمتدُّ إلى بُعدٍ جماعيٍّ يُحافظُ على تماسكِ المجتمعِ ويُحصِّنُهُ ضدَّ الفوضى الإعلاميّةِ. وعبرَ تطبيقِ المقارباتِ السّوسيولوجيّةِ، يظهرُ أنَّ الرّقابةَ الذّاتيّةَ تتقاطعُ مع تصوّراتِ مدرسةِ فرانكفورت عن الحوارِ العقلانيِّ، و(بورديو) عن الهيمنةِ الرمزيّةِ ومقاومتِها، و(دوركايم) عن الضّبطِ الاجتماعيِّ والأنومي (Anomie). وهذا ما يجعلُ القرآنَ الكريمَ نصًّا مُؤسِّسًا لفهمٍ عميقٍ للرّقابةِ الذّاتيّةِ يتجاوزُ الزّمنَ والسّياقاتِ التّاريخيّةِ.

سادسًا: إسهاماتُ المُقاربةِ السّوسيولوجيّةِ في تحليلِ الرّقابةِ الذّاتيّةِ

تُعدّ الرّقابةُ الذّاتيّةُ في الإعلامِ من المفاهيمِ التي تتجاوزُ حدودَ الفهمِ الدّينيّ أو الخُلُقيّ الفرديّ

1 - Émile، Durkheim. Le Suicide. Paris, p. 276.

لتدخلَ في صميمِ التحليلِ السّوسيولوجيّ؛ إذ ترتبطُ بآلياتِ الضّبطِ الاجتماعيّ، وأنماطِ السّلطةِ الرمزيّةِ، والدّورِ التّربويّ للإعلامِ في إعادةِ إنتاجِ القيمِ والمعاييرِ. وتتيحُ لنا الأدواتُ النظريّةُ التي قدّمها كبارُ علماءِ الاجتماعِ - مثلَ (إميل دوركايم) و(بيير بورديو)، إلى جانبِ مدارس سوسيولوجيا الإعلام - إمكانيةَ الإضاءةِ على الرّقابةِ الذّاتيّةِ باعتبارِها ظاهرةً متعددةَ الأبعادِ: خُلُقيّةً، واجتماعيّةً، وثقافيّةً، وتواصليّةً.

١- الضّميرُ الجمعيّ عندَ (دوركايم): الرّقابةُ الذّاتيّةُ آليةُ ضَبْطٍ اجتماعيّ

يرى (إميل دوركايم) أنَّ المجتمعاتِ لا تقومُ إلا على وجودِ «الضّميرِ الجمعيّ» (La conscience collective)، أي ذلكَ المخزونِ المشتركِ من المعتقداتِ والقيمِ والمعاييرِ الذي يضبطُ سلوكَ الأفرادِ ويوجّههم.[1] ليستْ الرّقابةُ الذّاتيّةُ في هذا السياقِ مجرّدَ قرارٍ فرديّ، بل هي انعكاسٌ لتشبّعِ الفردِ بالضّميرِ الجمعيِّ الذي يجعله يحاسبُ نفسَه قبلَ أن يخضعَ لرقابةِ الآخرين. يحوّلُ الضّميرُ الجمعيُّ القيمَ إلى ما يشبهُ «قوّةً قهريّةً» غيرَ منظورةٍ؛ بحيثُ يخضعُ الفردُ لرقابةٍ داخليّةٍ نابعةٍ من وعيهِ بالانتماءِ إلى الجماعةِ. وفي الإعلامِ، يتجلّى ذلكَ في التزامِ الصحفيِّ أو الإعلاميِّ بمعاييرِ الصّدقِ والدقّةِ وعدمِ نشرِ ما يُهدّدُ وحدةَ المجتمعِ، حتى في غيابِ رقيبٍ خارجيّ. فهمُ الإعلامِ الإسلاميِّ بهذا التّصورِ يجعلنا ندركُ أنَّ الرّقابةَ الذّاتيّةَ، المستندةَ إلى الضّميرِ الجمعيِّ المتجذرِ في النّصِّ القرآنيِّ والقيمِ الدّينيّةِ، يمكن أن تُشكّلَ بديلاً قويًّا للرّقابةِ السّلطويّةِ. فهي رقابةٌ «من الداخل» تتغذّى على وعيٍ خُلُقيّ مشتركٍ يتجاوزُ الأطرَ القانونيّةَ البحتةَ.

٢- رأسُ المالِ الرمزيّ عندَ (بورديو): الرّقابةُ الذّاتيّةُ رهانٌ على الشّرعيّةِ

قدّمَ (بيير بورديو) مفهومَ رأسِ المالِ الرمزيّ (Capital symbolique) لشرحِ كيف تتحوّلُ

1 - Ēmile Durkheim,De la division du travail social,p102

المكانةُ الاجتماعيّةُ والاعترافُ الرمزيّ إلى مواردَ قوّةٍ توازي الموارِدَ الاقتصاديّةَ.[1]

بالنّسبة للإعلاميِّ، فإنَّ سمعتهُ ومصداقيتَه وثقةَ الجمهورِ به، تمثّلُ رأسَ ماله الرمزيّ الأهمَّ. وتتحوّلُ الرّقابةُ الذّاتيّةُ هنا إلى أداةٍ لحمايةِ هذا الرّصيد. فالإعلاميُّ الذي ينشرُ أخبارًا كاذبةً أو يسقطُ في الإثارةِ يفقدُ بسرعةٍ رأسَ ماله الرمزيّ، أي الشّرعيّةَ التي تمنحه سلطةَ التأثير. أما الإعلاميُّ الذي يمارسُ رقابةً ذاتيّةً – فيتحرّى الدقّةَ ويتجنّبُ التّضليلَ – فإنه يعزّزُ مكانتَهُ الرمزيّةَ ويضاعفُ رأسماله الاجتماعيّ والثقافيّ.

من منظورِ (بورديو)، يمكن القولُ إنَّ الرّقابةَ الذّاتيّةَ لا تُفهمُ فقط باعتبارها بُعدًا خُلُقيًّا، بل أيضًا استراتيجيّةً عمليّةً للحفاظِ على الرّأسمالِ الرمزيِّ الذي يضمنُ استمراريّةَ الفعلِ الإعلاميّ داخلَ "الحقلِ الإعلاميّ» (Le champ médiatique).

٣- الوظيفةُ التربويّةُ للإعلام: المنظورُ البنيوي-الوظيفيّ

تنظرُ النظريّةُ البنيويّة-الوظيفيّة، كما بلورها (تالكوت بارسونز-Talcott Parsons) و(روبرت ميرتون- Robert King Merton)، إلى الإعلامِ باعتباره مؤسّسةً اجتماعيّةً تؤدّي وظائفَ أساس: نقلَ القيم، وتقويةَ الهويةِ الجماعيّةِ، وتعزيزَ الاندماجِ الاجتماعيّ.[2]

في هذا الإطارِ، تمثّلُ الرّقابةُ الذّاتيّةُ شرطًا لتحقيقِ الوظيفةِ التربويّةِ للإعلام. فالإعلامُ الذي يُطلقُ خطابًا منحرفًا أو مضلّلًا يخلُّ بوظيفتِه في التّنشئةِ الاجتماعيّة، ويحوّلُ الفضاءَ العموميّ إلى مجالٍ فوضويّ. بينما الإعلامُ الذي يُمارسُ الرّقابةَ الذّاتيّةَ يضمنُ انتقالَ القيمِ المشتركةِ ويعيدُ إنتاجَ التّماسكِ الاجتماعيّ.

وهذا يلتقي مع ما دعا إليه القرآنُ من جعلِ القولِ مسؤوليّةً خُلُقيّةً، مثل قوله تعالى: ﴿**وَقُولُوا**

1 - Pierre Bourdieu, Langage et pouvoir symbolique, p. 112.

2 - Robert ,k, Merton, Elements de thēorie et de mēthodes sociologique,p103104-.

﴿لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. فالرقابةُ الذّاتيّةُ تُصبحُ هنا وظيفةً بنيويّةً داخلَ المنظومةِ الإعلاميّةِ، لا مجرّدَ خيارٍ شخصيٍّ.

٤- مقارباتُ سوسيولوجيا الإعلام: الرّقابةُ الذّاتيّةُ في عصرِ الشبكات

عرفت سوسيولوجيا الإعلامِ اتّجاهاتٍ عدّةَ حاولت تفسيرَ العلاقةِ بين الإعلامِ والمجتمعِ:

أ. المقاربةُ النّقديّةُ (مدرسة فرانكفورت): ترى أنَّ الإعلامَ قد يتحوّلُ إلى أداةٍ للهيمنةِ ونشرِ الأيديولوجيا السّائدةِ[٣]، ما يجعلُ الرّقابةَ الذّاتيّةَ مقاومةً لهذه الهيمنةِ، لا خضوعًا لها.

ب. مقاربةُ الاستخداماتِ والإشباعات: تعتبر أنَّ الجمهورَ ليسَ سلبيًّا، بل فاعلاً في اختيارِ المضامينِ. ومن هنا، تسهمُ الرّقابةُ الذّاتيّةُ للإعلاميِّ في بناءِ علاقةِ ثقةٍ مع جمهورٍ واعٍ وناقدٍ.

ج. المقاربةُ التّفاعليّة: تركّز على التّفاعلِ الرّمزيّ في وسائلِ الإعلامِ الجديدةِ. تصبحُ الرّقابةُ الذّاتيّةُ في الفضاءِ الرقميّ أكثرَ إلحاحًا؛ لأنَّ كلَّ فردٍ باتَ منتجًا للمحتوى.

تُكشف هذه المقارباتُ أنَّ الرّقابةَ الذّاتيّةَ ليست مفهومًا ثابتًا، بل تتغيّرُ دلالتُها بحسب السياقاتِ التكنولوجيّةِ والاجتماعيّةِ.

٥- مقاربةٌ سوسيولوجيّةٌ لمعضلاتِ الإعلامِ الإسلاميّ

إذا نقلنا هذه الأدواتَ التحليليّةَ إلى واقعِ الإعلامِ الإسلاميِّ، فإنَّنا نجدُ عدةَ معضلاتٍ أساس:

أ. غيابُ الضّميرِ الجمعيِّ الموحد: نتيجةَ التعددِ المذهبيّ والسياسيّ، ما يجعلُ الرّقابةَ

3 - Theodor W. Adorno & Max Horkheimer, Dialectique de la raison ,p 165.

الذّاتيّةَ عرضةً للتسييسِ أو التوظيفِ الأيديولوجيّ.

ب. ضعفُ الرّأسمالِ الرمزيّ: يفقد بعضُ الإعلاميينَ مصداقيتَهم بسبب الانخراطِ في الحملاتِ الدعائيّةِ أو الخطاباتِ الشعبويّة.

ج. تعطّلُ الوظيفةِ التربويّة: حين يتحوّلُ الإعلامُ الدّينيُّ إلى منبرٍ للتجريحِ أو التحريضِ بدلاً من التربيةِ والإصلاحِ.

د. أزمةُ الإعلامِ الرقميّ: تضاعفت مسؤوليّةُ الرّقابةِ الذّاتيّةِ مع انتشارِ المحتوى السّريعِ وغيرِ الموثوقِ.

تكشفُ المقاربةُ السّوسيولوجيّةُ أنَّ الرّقابةَ الذّاتيّةَ في الإعلامِ الإسلاميّ ليست مجرّدَ قيمةٍ مثاليّةٍ، بل هي ضرورةٌ بنيويّةٌ لضمانِ الشّرعيّةِ والفاعليّةِ. لكنَّ تحقيقَها يتطلّبُ استحضارَ الضّميرِ الجمعيِّ، وحمايةَ الرّأسمالِ الرمزيِّ، وتفعيلَ الوظيفةِ التربويّةِ للإعلامِ ضمن حقلٍ إعلاميٍّ يواجهُ تحدياتٍ معقّدةً.

سابعًا: الانعكاساتُ العمليّةُ للرّقابةِ الذّاتيّةِ على الممارسةِ الإعلاميّةِ الإسلاميّةِ

يُؤثِّرُ تطبيقُ الرّقابةِ الذّاتيّةِ على المستوى العمليِّ بشكلٍ مباشرٍ على إنتاجِ المحتوى الإعلاميِّ، والبنيةِ التّحريريّةِ والمؤسّسيّةِ، وكذلك على الجمهورِ والمتلقّي؛ إذ إنَّ التزامَ الإعلاميِّ بالمعاييرِ الخُلُقيَّةِ يُعزّزُ مصداقيّةَ الرّسالةِ ويُقلّلُ من المخاطرِ الاجتماعيّةِ النّاتجةِ عن تداولِ المعلوماتِ.

١- الانعكاساتُ على مستوى إنتاجِ المحتوى

تجعلُ الرّقابةُ الذّاتيّةُ الإعلامَ أكثرَ مراعاةً للحقائقِ والموضوعيّةِ، فيتجنّبُ الإفراطَ في الإثارةِ

أو التّحريفِ أو نشرَ الشّائعاتِ. كما أنّها تُعزّزُ الالتزامَ بالصّدقِ والحكمةِ في نقلِ الأخبارِ والآراءِ، مع مراعاةِ تأثيرِ الكلمةِ على المجتمعِ.

٢- الانعكاساتُ على مستوى البنيةِ التّحريريّةِ والمؤسّسيّةِ

تُؤثّرُ الرّقابةُ الذّاتيّةُ على طريقةِ هيكلةِ المؤسّساتِ الإعلاميّةِ من خلالِ:

أ- وضع معاييرَ واضحة للمراجعةِ والتّدقيقِ قبل النّشرِ.

ب- تعزيزِ ثقافةِ المسؤوليّةِ الخُلُقيَّة بين فريقِ العملِ.

ج- اعتمادِ نظمٍ داخليّةٍ للتّقييمِ الذّاتيِّ للمحتوى قبل بثِّه.

٣- الانعكاساتُ على المتلقّي والجمهورِ

يُعزِّزُ الإعلامُ الملتزمُ بالرّقابةِ الذّاتيّةِ وعيَ الجمهورِ ويُشكِّلُ قاعدةً للثقافةِ الخُلُقيَّة. ويُساهمُ في تنميةِ الحسِّ النّقديِّ لدى المتلقّي، ويخلقُ ثقةً متبادلةً بين الإعلامِ والمجتمعِ، ويُقلّلُ من انتشارِ الفوضى المعلوماتيّةِ والشّائعاتِ.

٤- تحدّياتٌ عمليّةٌ لتفعيلِ الرّقابةِ الذّاتيّةِ

رغمَ الفوائدِ، تُواجهُ الرّقابةُ الذّاتيّةُ تحدّياتٍ عمليّةً، منها:

أ. الضّغوطُ التّجاريّةُ والسّياسيّةُ على المؤسّساتِ الإعلاميّةِ.

ب. سرعةُ انتشارِ المعلوماتِ الرّقميّةِ ووسائلِ التّواصلِ الاجتماعيِّ، ما يُصعِّبُ السّيطرةَ

على الأخطاءِ.

ج. حاجةُ الإعلاميّينَ إلى تدريبٍ مستمرٍّ على الخُلُقيّاتِ المهنيّةِ والرّقابةِ الذّاتيّةِ.

يتطلّبُ تجاوزُ هذه التّحدّياتِ تضافرَ الجهودِ بين الإعلاميّينَ والمجتمعِ والمؤسّساتِ التّعليميّةِ والتّربويّةِ لتعزيزِ ثقافةِ الرّقابةِ الذّاتيّةِ وتطبيقِها بشكلٍ فعّالٍ.

ثامنًا: مقارنةٌ نقديّةٌ بين الرّقابةِ الذّاتيّةِ في الإسلامِ والرّقابةِ القانونيّةِ في الإعلامِ المعاصرِ

تُتيحُ المقارنةُ بين الرّقابةِ الذّاتيّةِ في الإسلامِ والرّقابةِ القانونيّةِ في الإعلامِ المعاصرِ فهمًا أعمقَ لمحدّداتِ كلٍّ منهما، والآليّاتِ التي يُتيحُها كلُّ نظامٍ لضبطِ السّلوكِ الإعلاميِّ، سواءٌ على مستوى الفردِ أم المؤسّسةِ.

١- الرّقابةُ الذّاتيّةُ في الإسلامِ:

تستندُ الرّقابةُ الذّاتيّةُ في الإعلامِ الإسلاميِّ إلى قيمٍ خُلُقيّةٍ وروحيّةٍ، أبرزُها:

أ- الاستنادُ إلى ضميرِ الفردِ بصفته مرشدًا داخليًّا.

ب- الالتزامُ بالصّدقِ، والمسؤوليّةِ، والحكمةِ في نقلِ المعلوماتِ.

ج- استحضارُ الجزاءِ الأخرويِّ باعتباره محفِّزًا للامتثالِ للمعاييرِ الخُلُقيَّة.

وتعملُ هذه الرّقابةُ على ضبطِ السّلوكِ الإعلاميِّ بصورةٍ مباشرةٍ؛ إذ تتحوّلُ الممارسةُ الإعلاميّةُ إلى التزامٍ ذاتيٍّ ينبعُ من وعيِ الفردِ ورغبتِه في الامتثالِ لرضا الله قبلَ أيِّ اعتبارٍ آخرَ، وهو ما يجعلُها أشملَ من مجرّدِ نظامٍ خارجيٍّ للرّقابةِ.

٢- الرّقابةُ القانونيّةُ في الإعلامِ المعاصرِ:

وتعتمدُ الرّقابةُ القانونيّةُ على القوانينِ والتّشريعاتِ التي تضعُها الدّولُ لتنظيمِ المجالِ الإعلاميِّ؛ حيثُ تفرضُ عقوباتٍ على التّجاوزاتِ مثلَ التّشهيرِ أو نشرِ الأخبارِ الكاذبةِ، وتُحدّدُ في الوقتِ نفسهِ سقفَ حرّيّةِ التّعبيرِ بما يحمي الحقوقَ الفرديّةَ والجماعيّةَ.

كما تُوجَدُ هيئاتٌ رقابيّةٌ وإداريّةٌ تُتابعُ الالتزامَ بهذه القوانينِ. ورغمَ ذلكَ، فإنّ هذه الرّقابةَ تظلُّ مرتبطةً بالمؤسّساتِ والأنظمةِ أكثرَ من ارتباطِها بالوعيِ الدّاخليِّ لدى الإعلاميِّ.

٣- مقارنةٌ نقديّةٌ:

عندَ المقارنةِ بين الرّقابةِ الذّاتيّةِ الإسلاميّةِ والرّقابةِ القانونيّةِ المعاصرةِ، نلحظُ أنَّ الفارقَ الأساس يكمنُ في مصدرِ كلٍّ منهما: الأولى تستمدُّ قوّتَها من الضّميرِ والإيمانِ، بينما الثّانيةُ تستندُ إلى نصوصٍ تشريعيّةٍ وضعيّةٍ.

ومن حيثُ الفاعليّةِ، فإنّ الرّقابةَ الذّاتيّةَ أكثرُ استمراريّةً لأنّها لا تحتاجُ إلى سلطةٍ خارجيّةٍ للإلزامِ، بينما الرّقابةُ القانونيّةُ تظلُّ رهينةً بقدرةِ الدّولةِ على فرضِ العقوباتِ.

أمّا من حيثُ النّطاقِ، فإنّ الرّقابةَ الذّاتيّةَ تشملُ الفردَ والمجتمعَ على السّواءِ، بينما الرّقابةُ القانونيّةُ تُركّزُ بالأساسِ على المؤسّساتِ الإعلاميّةِ والمحتوى المنشورِ.

وأخيرًا، من حيثُ الجزاءِ، فإنّ الرّقابةَ الذّاتيّةَ ترتبطُ بعقابٍ أخرويٍّ وإحساسٍ بالذّنبِ أمامَ الله والنّاسِ، في حينَ تقتصرُ الرّقابةُ القانونيّةُ على العقوباتِ المادّيّةِ أو المعنويّةِ التي تفرضُها السّلطةُ.

من هنا يُمكنُ القولُ: إنّ الرّقابةَ الذّاتيّةَ الإسلاميّةَ أعمقُ أثرًا على شخصيّةِ الإعلاميِّ؛ لأنّها تغرسُ المسؤوليّةَ في داخلِه، بينما الرّقابةُ القانونيّةُ تُوفّرُ إطارًا ضروريًّا لكنَّه محدودٌ، ما يستدعي تكاملَهما لتحقيقِ إعلامٍ حرٍّ ومسؤولٍ في آنٍ واحدٍ.

تاسعًا: الرّقابةُ الذّاتيّةُ والممارسةُ الإعلاميّةُ المقاومةُ: نحو إعلامٍ ينحازُ إلى الحقِّ والعدلِ

ليست الرّقابةُ الذّاتيّةُ في الإعلامِ الإسلاميِّ مجرّدَ قيمةٍ خُلُقيّةٍ أو نزعةٍ فرديّةٍ نحوَ الانضباطِ، بل هي بالأساسِ ممارسةٌ وجوديّةٌ وسياسيّةٌ تجعلُ من الإعلاميِّ المسلمِ فاعلاً في معركةٍ حضاريّةٍ أشملَ، قوامُها المقاومةُ ضدَّ الظّلمِ والهيمنةِ واللا معنى. فالعالَمُ المعاصرُ يعيشُ على وقعِ أزمةِ «ما بعدَ الحقيقةِ»؛ حيثُ يجري استبدالُ الحقائقِ بالصّورِ والرّموزِ، وتُصاغُ السّرديّاتُ الإعلاميّةُ الكبرى بما يخدمُ القوى المهيمنةَ.

ومن ثمَّ، فإنَّ التزامَ الإعلاميِّ المسلمِ بالرّقابةِ الذّاتيّةِ يمثّلُ خطوةً مقاومةً تستعيدُ للإعلامِ وظيفتَه الأصليّةَ: نصرةَ الحقِّ والعدلِ، والدّفاعَ عن المستضعفينَ. يشيرُ القرآنُ الكريمُ إلى مركزيّةِ هذا الدّورِ حينَ يقولُ تعالى: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾ [الإسراء: ٨١]. فالكلمةُ الصّادقةُ هنا ليستْ مجرّدَ إخبارٍ أو نقلٍ، بل هي فعلُ مقاومةٍ يواجهُ الباطلَ بالكشفِ عن زيفِه وإعادةِ الاعتبارِ للمعنى. وبذلكَ تتحوّلُ الرّقابةُ الذّاتيّةُ إلى ضمانةٍ كي لا يتحوّلَ الإعلامُ الإسلاميُّ إلى صدى لخطابِ المهيمنينَ، وإنّما يصبحُ منصّةً للمقاومةِ الرّمزيّةِ والثّقافيّةِ.

١- المثقّفُ العضويُّ والإعلاميُّ المسلمُ:

يُمكنُ قراءةُ الرّقابةِ الذّاتيّةِ على المستوى السّوسيولوجيِّ في ضوءِ مفهومِ المثقّفِ العضويِّ عندَ (أنطونيو غرامشي-Antonio Gramsci). فالمثقّفُ ـ وفقَ هذا التّصوّرِ ـ لا يكتفي بموقعِ المتفرّجِ أو النّاقلِ المحايدِ، بل ينخرطُ في النّسيجِ الاجتماعيِّ، ويجعلُ من أدواتِه المعرفيّةِ وسيلةً للدّفاعِ عن مصالحِ الفئاتِ المهمَّشةِ والضّعيفةِ[1].

وإذا اعتمدْنا هذا المفهومَ وطبّقناه على الإعلاميِّ المسلمِ، فإنّ الرّقابةَ الذّاتيّةَ تُصبحُ

١ - أنطونيو غرامشي: كراسات السجن، ص. ص ٢١-٣٨.

آليّةً لتحويله إلى مثقّفٍ عضويٍّ يجمعُ بين الرّسالةِ الدّينيّةِ التي تفرضُ عليه قولَ الحقِّ، والالتزامِ الخُلُقيّ والاجتماعيِّ الذي يربطُه بقضايا النّاسِ وهمومِهم. يجدُ هذا الرّبطُ صداهُ في قولِه تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ**﴾ [النّساء: ٧٥]. تُؤكّدُ الآيةُ أنَّ نصرةَ المستضعفينَ ليستْ خيارًا ثانويًّا، بل هي التزامٌ دينيٌّ وخُلُقيّ. والإعلاميُّ المسلمُ، حينَ يُمارسُ رقابةً ذاتيّةً، يتجنّبُ التواطؤَ مع خطابِ الهيمنةِ الذي يسعى إلى تهميشِ صوتِ هؤلاءِ، ويجعلُ من عملِه اليوميِّ شكلاً من أشكالِ المقاومةِ.

٢- الرّقابةُ الذّاتيّةُ في زمنِ ما بعدَ الحقيقةِ:

في عالمِ الشّبكاتِ، كما حلّلهُ (مانويل كاستلز-Manuel Castells)، تتحوّلُ السّلطةُ إلى سلطةِ اتّصالٍ، حيثُ تُمارَسُ السّيطرةُ عبرَ التّحكّمِ في تدفّقِ المعلوماتِ وصناعةِ الرّموزِ.[1] وفي هذا السّياقِ، تُصبحُ الرّقابةُ الذّاتيّةُ شرطًا لمواجهةِ «زمنِ ما بعدَ الحقيقةِ»؛ حيثُ تنتشرُ الأخبارُ الكاذبةُ والمعلوماتُ المضلِّلةُ عبرَ المنصّاتِ الرّقميّةِ.

وقد سبقَ القرآنُ الكريمُ إلى التّحذيرِ من الانسياقِ وراءَ الأخبارِ غيرِ الموثوقةِ، قالَ تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ [الحجرات: ٦].

فالتّثبّتُ والتّحقّقُ ليسا مجرّدَ آليّتَيْنِ مهنيّتَيْنِ في العملِ الصّحفيِّ، بل هما التزامٌ شرعيٌّ وخُلُقيّ يقيان المجتمعَ من الانزلاقِ في فوضى المعلوماتِ. ومن هنا، يُصبحُ الإعلامُ الإسلاميُّ ـ عبرَ الرّقابةِ الذّاتيّةِ ـ قادرًا على مقاومةِ التّضليلِ، وبناءِ ثقةٍ متجدّدةٍ مع جمهورِه.

---

١ - إدريس الغزواني: مقال «مانويل كاستلز ومفهوم مجتمع الشبكات من المجتمع إلى الشبكة: نحو مقاربة تأويلية للهوية والسلطة في عصر المعلومات».

٣- مقاومةُ الهيمنةِ الرمزيةِ:

يرى (بيير بورديو) أنَّ الإعلامَ قد يتحوَّلُ إلى أداةٍ لإعادةِ إنتاجِ الهيمنةِ الرمزيةِ؛ حيثُ يفرضُ خطابَ الأقوياءِ باعتبارِه الشرعيَّ، ويقصي خطابَ المهمشينَ.[١]

لكنَّ الرقابةَ الذاتيةَ المستندةَ إلى مرجعيةٍ إيمانيةٍ تتيحُ للإعلاميِّ المسلمِ كسرَ هذا المنطقِ، والانحيازَ بوعيٍ إلى خطابِ الحقِّ. وهنا يتجسَّدُ الفارقُ بين الإعلامِ الخاضعِ لسلطةِ السوقِ والسياسةِ، والإعلامِ المقاومِ الذي يستحضرُ الرقابةَ الذاتيةَ بوصفها معيارًا لاختيارِ المحتوى، ومنحِ المنصَّةِ لصوتِ الضحايا والمستضعفينَ.

وهذا التوجّهُ يجدُ سندَه في الآيةِ السابقةِ [النساء: ٧٥]؛ حيثُ يربطُ النصُّ القرآنيُّ بين الالتزامِ الدينيِّ ومقاومةِ الظلمِ الاجتماعيِّ. ومن خلالِ هذه المقاربةِ، يتضحُ أنَّ الرقابةَ الذاتيةَ ليستْ فقط التزامًا بتجنّبِ الزيفِ، بل هي أيضًا فعلُ مقاومةٍ ضدَّ البنيةِ الرمزيةِ التي يسعى الأقوياءُ إلى فرضِها على الوعيِ الجمعيِّ.

٤- الوسائطُ والرسالةُ: منظورُ (ريجيس دوبريه - Régis Debray):

تضيفُ مقاربةُ (ريجيس دوبريه) في «علمِ الوسائط» (La médiologie)، بُعدًا جديدًا لهذه المقاومةِ. فاختيارُ الوسيطِ الذي تُنقَلُ عبرَه الرسالةُ قد يُعزِّزُ مضمونَها أو يُفرغُها من معناها.[٢]

ومن ثمَّ، فإنَّ الإعلاميَّ المسلمَ المقاومَ، حينَ يُمارسُ رقابةً ذاتيةً، لا يكتفي بقولِ الحقيقةِ، بل يُفكّرُ أيضًا في الوسائطِ والمنصّاتِ التي يستخدمُها. فهو يرفضُ مثلًا الانجرارَ إلى المنصّاتِ التي تُحوِّلُ الخبرَ إلى ترفيهٍ فارغٍ، ويبحثُ عن قنواتٍ تُحافظُ على صدقيةِ الرسالةِ وقيمتِها الخُلُقيةِ.

---

١ - بيير بورديو: التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ص. ص ٨٣ -١٢٤.

٢ - عبد السلام الزبيدي: الميديولوجيا لدى روجيس دوبريه -فلسفة الإنسان المبلغ-، ص. ص٤١- ٤٢.

وبذلك، تتقاطعُ الرقابةُ الذاتيةُ مع استراتيجيةٍ واعيةٍ لاختيارِ الوسائطِ بما يخدمُ مشروعَ المقاومةِ الإعلاميةِ، ويرفضُ الانخراطَ في دائرةِ "اللا معنى" التي تهيمنُ على المشهدِ الرقميِّ المعاصرِ.

٥- نحوَ إعلامٍ مقاومٍ للظلمِ واللا معنى:

من خلالِ هذا التكاملِ بين الرؤيةِ القرآنيةِ والتحليلِ السوسيولوجيِّ، يتضحُ أنَّ الرقابةَ الذاتيةَ ليستْ انضباطًا خُلُقيًّا فحسبُ، بل هي أيضًا إطارٌ استراتيجيٌّ لممارسةٍ إعلاميةٍ مقاومةٍ. فهي التي تمكّنُ الإعلاميَّ المسلمَ من رفضِ خطابِ التلاعبِ، ومواجهةِ زمنِ "ما بعد الحقيقةِ"، والانتصارِ للقضايا العادلةِ، والانحيازِ إلى المظلومينَ.

تمثّلُ الرقابةُ الذاتيةُ بهذا المعنى، جسرَ عبورٍ من الإعلامِ الاستهلاكيِّ المحايدِ إلى الإعلامِ الملتزمِ، ومن النقلِ السلبيِّ للوقائعِ إلى الفعلِ المقاومِ الذي يجعلُ من الكلمةِ أداةً للتحررِ. وهذا ما يجعلُ الإعلامَ الإسلاميَّ؛ إذا التزمَ بمبدأِ الرقابةِ الذاتيةِ، مشروعًا حضاريًا بامتيازٍ، يدمجُ بين الرسالةِ القرآنيةِ والتحليلِ السوسيولوجيِّ في سبيلِ بناءِ فضاءٍ عامٍّ أكثرَ عدلاً ومعنًى.

عاشرًا: نحوَ ميثاقٍ خُلُقيّ للإعلامِ الإسلاميِّ قائمٍ على الرقابةِ الذاتيةِ

يُمثّلُ الإعلامُ في المجتمعاتِ المعاصرةِ أحدَ أكثرِ الأدواتِ تأثيرًا في تشكيلِ الرأيِ العامِّ وتوجيهِ القيمِ والسلوكياتِ. وفي ظلِّ التحدياتِ المرتبطةِ بالعولمةِ الرقميةِ وتضخّمِ شبكاتِ التواصلِ، يبرزُ السؤالُ عن الضماناتِ الخُلُقيةِ التي يمكنُ أن تقيَ الممارسةَ الإعلاميةَ من الانزلاقِ نحوَ التضليلِ أو الإثارةِ أو الانتهاكِ القيميِّ. ومن هذا المنطلقِ، تطرحُ الرقابةُ الذاتيةُ نفسها باعتبارها خيارًا مركزيًّا في بناءِ ميثاقٍ خُلُقيّ للإعلامِ الإسلاميِّ، يجمعُ بين أصالةِ المرجعيةِ القرآنيةِ وتجاربِ الفكرِ الإسلاميِّ الحديثِ والمعاصرِ، وبين ما راكمتْهُ العلومُ الاجتماعيةُ من مفاهيمَ وآلياتٍ تحليليةٍ.

١- أسسُ الميثاقِ الخُلُقيّ:

أ- أولُ هذه الأسسِ هو الصدقُ الذي اعتبرهُ القرآنُ الكريمُ معيارًا للخطابِ؛ حيثُ يقولُ تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩]. فالصدقُ ليسَ فقط التزامًا دينيًّا، بل هو أساسُ الثقةِ بينَ الإعلاميِّ والجمهورِ.

ب- الأساسُ الثاني هو المسؤوليةُ؛ إذ إنَّ الكلمةَ في الإسلامِ أمانةٌ، كما وردَ في قولهِ تعالى: ﴿**مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق: ١٨]. وهذا يعكسُ الطبيعةَ الجوهريةَ للرقابةِ الذاتيةِ، التي تجعلُ الإعلاميَّ محاسبًا أمامَ اللهِ قبلَ أن يكونَ محاسبًا أمامَ القانونِ.

ج- أما الأساسُ الثالث فهو الحكمةُ؛ حيثُ دعا القرآنُ إلى أن يكونَ الخطابُ قائمًا على البصيرةِ: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ [النحل: ١٢٥]. ومن شأنِ الحكمةِ أن تقيَ الإعلامَ من الانجرارِ وراءَ الإثارةِ أو الخطابِ العدائيِّ.

وأخيرًا، فإنَّ الضميرَ يمثلُ الحارسَ الداخليَّ الذي يضبطُ الممارسةَ الإعلاميةَ حتى في غيابِ الرقيبِ الخارجيِّ.

٢- نموذجٌ مثاليٌّ للميثاقِ الخُلُقيّ للإعلاميِّ المسلمِ:

لتحويلِ هذهِ الأسسِ النظريةِ إلى ميثاقٍ عمليٍّ، يمكنُ تصورُ نموذجٍ مثاليٍّ يتضمّنُ عشرةَ بنودٍ يلتزمُ بها الإعلاميُّ المسلمُ، بحيثُ تشكّلُ إطارًا خُلُقيّا يحكمُ عملَه اليوميَّ:

أ. الالتزامُ بالصدقِ في جمعِ الأخبارِ ونقلِها، والابتعادُ عن التضليلِ أو تزييفِ الحقائقِ.

ب. تحمّلُ المسؤوليةِ عن كلِّ كلمةٍ أو صورةٍ يجري نشرُها؛ باعتبارها أمانةً أمامَ اللهِ والمجتمعِ.

ج. الانحيازُ للحقيقةِ في كلِّ القضايا، حتى وإن تعارضَ ذلك مع مصالحَ شخصيةٍ أو ضغوطٍ سياسيةٍ.

د. مناصرةُ المظلومينَ والمستضعفينَ عبرَ إعطائِهم مساحةً للتعبيرِ وإيصالِ صوتِهم للرأي العامِّ.

ه. الالتزامُ بالحكمةِ في الخطابِ الإعلاميِّ، وتجنّبُ ما يثيرُ الفتنةَ أو يُغذي الكراهيةَ.

و. حمايةُ الخصوصيةِ وصونُ كرامةِ الأفرادِ، وعدمُ السقوطِ في التشهيرِ أو الإساءةِ.

ز. رفضُ المتاجرةِ بالقيمِ أو تحويلِ الإعلامِ إلى أداةٍ للابتزازِ أو خدمةِ المصالحِ الضيقةِ.

ح. إعلاءُ المصلحةِ العامةِ على حسابِ النزعاتِ الفرديةِ أو المكاسبِ الماديةِ.

ط. الرقابةُ الذاتيةُ باعتبارِها الضمانةَ الأولى للنزاهةِ، قبلَ أيِّ رقابةٍ خارجيةٍ.

ي. الالتزامُ بروحِ الإصلاحِ في الخطابِ الإعلاميِّ، بحيثُ يسعى الإعلامُ إلى خدمةِ المجتمعِ وتعزيزِ قيمِ العدالةِ والحريةِ.

وهكذا، يبدو مما سبقَ أنّ بلورةَ ميثاقٍ خُلُقيّ للإعلامِ الإسلاميِّ قائمٍ على الرقابةِ الذاتيةِ تمثّلُ ضرورةً حضاريةً لمواجهةِ تحدياتِ العصرِ الرقميِّ؛ حيثُ لم تعد الرقابةُ الخارجيةُ كافيةً لضبطِ التدفقاتِ الإعلاميةِ. وبقدرِ ما يكونُ الإعلاميُّ واعيًا بمسؤوليّتِه أمامَ اللهِ والناسِ، بقدرِ ما يسهمُ في بناءِ إعلامٍ حرٍّ ومسؤولٍ يخدمُ الحقيقةَ والعدالةَ.

خاتمة

يتبينُ من خلالِ ما تمَّ عرضهُ في المحاورِ السابقةِ، تمثّلُ الرقابةُ الذاتيةُ حجرَ الزاويةِ في بناءِ ممارسةٍ إعلاميةٍ إسلاميةٍ مسؤولةٍ، فهي ليستْ مجردَ أداةٍ تنظيميةٍ، بل منظومةٌ قيميةٌ وخُلُقيةٌ متجذّرةٌ في النصِّ القرآنيِّ وفي تراثِ الفكرِ الإسلاميِّ. وقد أظهرتِ النماذجُ القرآنيةُ والشواهدُ

المأثورةُ عن الإمامِ عليٍّ بن أبي طالب (عليه السلام)، أنَّ الرقابةَ الذاتيةَ تقومُ على عناصرَ أساس هي: الصدقُ، والمسؤوليةُ، والحكمةُ، وحمايةُ القيمِ الجماعيةِ.

على المستوى السوسيولوجيِّ، يتضحُ أنَّ تحليلَ الرقابةِ الذاتيةِ لا ينفصلُ عن مفاهيمَ مثلَ الضميرِ الجمعيِّ عندَ دوركايمَ أو رأسِ المالِ الرمزيِّ عندَ بورديو، مما يسمحُ بفهمٍ أعمقَ لديناميكياتِ التأثيرِ الإعلاميِّ ووظائفِه التربويةِ.

كما برزَ أنَّ الإعلامَ الإسلاميَّ المعاصرَ يواجهُ تحدياتٍ متعددةً، أهمُّها هيمنةُ النماذجِ الغربيةِ، ضعفُ الالتزامِ بالضوابطِ الخُلُقيةِ، واستغلالُ الإعلامِ لأغراضٍ سياسيةٍ وتجاريةٍ. لكنَّ اقتراحَ ميثاقٍ خُلُقيّ للإعلامِ الإسلاميِّ قائمٍ على الرقابةِ الذاتيةِ، يوفرُ أفقًا لبناءِ إعلامٍ حرٍّ ومسؤولٍ يعزّزُ العدالةَ والحقَّ.

بناءً على ما سبقَ، يمكنُ صياغةُ التوصياتِ الآتية:

١. بلورةُ ميثاقٍ خُلُقيّ إعلاميٍّ على الصعيدينِ الوطنيِّ والإسلاميِّ، يستلهمُ المبادئَ القرآنيةَ ويترجمُها إلى التزاماتٍ عمليةٍ للإعلاميينَ.

٢. إدراجُ الرقابةِ الذاتيةِ في مناهجِ تكوينِ الإعلاميينَ، مع التركيزِ على الجانبِ القيميِّ إلى جانبِ المهاراتِ التقنيةِ.

٣. تعزيزُ دورِ المؤسساتِ الإعلاميةِ في تكريسِ ثقافةِ المسؤوليةِ والشفافيةِ من خلالِ آلياتِ المحاسبةِ الذاتيةِ (Media Accountability Systems).

٤. تشجيعُ البحوثِ الأكاديميةِ في مجالِ الإعلامِ الإسلاميِّ من زاويةٍ خُلُقيَّة وسوسيولوجيةٍ، بما يسهمُ في تطويرِ نظريةٍ أصيلةٍ في خُلُقيَّات الإعلامِ.

٥. بناءُ شراكاتٍ بين العلماءِ والمفكرينَ والإعلاميينَ، من أجلِ وضعِ قواعدَ عمليةٍ تضمنُ التوازنَ بينَ الحريةِ والمسؤوليةِ.

٦. مناصرةُ الفئاتِ المستضعفةِ، وجعلُ الإعلامِ أداةً للدفاعِ عن العدالةِ الاجتماعيةِ، انسجامًا مع جوهرِ الرسالةِ الإسلاميةِ.

إنّ الرقابةَ الذاتيةَ ليستْ مجردَ خيارٍ تنظيميٍّ، بل هي ضرورةٌ حضاريةٌ، تتيحُ للإعلامِ الإسلاميِّ أن يكونَ في مستوى التحدياتِ الراهنةِ، وأن يسهمَ في صياغةِ فضاءٍ إعلاميٍّ أكثرَ عدلاً وإنسانيةً.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- إدريس الغزواني، مقال «مانويل كاستلز و مفهوم مجتمع الشبكات من المجتمع إلى الشبكة: نحو مقاربة تأويلية للهوية و السلطة في عصر المعلومات»، مجلة عمران، العدد ٣٣، المجلد ٩، صيف ٢٠٢٠.
- أنطونيو غرامشي، كراسات السجن، ترجمة عادل غنيم، دار المستقبل العربي، القاهرة، ط-١٩٩٤.
- بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة درويش الحلوجي، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق، ط١- ٢٠٠٤.
- عبد السلام الزبيدي، الميديولوجيا لدى روجيس دوبريه: فلسفة الإنسان المبلغ، الدار المتوسطية للنشر، ط١- ٢٠١٩.
- علي شريعتي، الأخلاق للشباب والطلبة والناشئة، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، ط٢-٢٠٠٧.
- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط- ٢٠٠٢.
- مرتضى مطهري، ثبات الأخلاق، دار المحجة البيضاء، ط- ١٩٩٣.
- ممدوح الشيخ، عبد الوهاب المسيري: من المادية إلى الإنسانية الإسلامية، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١- ٢٠٠٨.

المراجع الأجنبية

- Adorno, Theodor W. & Max Horkheimer, Dialectique de la raison, Paris: Gallimard, 1974.
- Bourdieu, Pierre, Ce que parler veut dire: L'économie des échanges linguistiques, Paris: Fayard, 1982.
- Bourdieu, Pierre, Langage et pouvoir symbolique, Paris: Seuil, 2001.
- Durkheim, Émile, De la division du travail social, Paris: Félix Alcan, 1893.
- Durkheim, Émile, Le Suicide, Paris: Félix Alcan, 1897.
- Durkheim, Émile, Les Règles de la méthode sociologique, Paris: Presses Universitaires de France, 1895.
- Habermas, Jürgen, Moral Consciousness and Communicative Action, Cambridge: MIT Press, 1990.
- Habermas, Jürgen, The Theory of Communicative Action, Vol. 1: Reason and the Rationalization of Society, Boston: Beacon Press, 1984.
- Merton, Robert K., Eléments de théorie et de méthodes sociologique, traduit par Henri Mendras, Paris: Plon, 1965. 1974.